Farah Mamdouh Said Abd El Kerim

The Big Read Contest

Essay on the novel

“To Kill A Mocking Bird”

"أن تقتل طائرا بريئا"

لم أتوقع في بادئ الأمر أن كتاب " أن تقتل طائرا بريئا" سوف ينال إعجابى و يرجع ذلك إلى اعتقادي أن ترجمة أى كتاب إلى لغة مختلفة عن اللغة الأصلية تفقد الكلام حسه الإبداعي وأسلوب الكاتب ويترك هذا في النهاية للقارئ موضوع القصة وحبكتها الدرامية ويكون في ذلك تقييم أصعب للكتاب حيث يجب أن تتوفر في القصة الإثارة اللازمة لتشويق قارئها للنهاية.

لقد ناقش الكتاب العديد من القضايا الهامة مثل (العنصرية ضد الملونين، الحالة الاقتصادية في ذات الوقت، علاقة الأب بأبنائه ...) و لكن الجدير بالذكر أنه مع تعدد القضايا المطروحة لم يترك ذلك طابع الملل أو الثقل فقد طرحت المواضيع المذكورة بطريقة سلسة ومثيرة للاهتمام ووزعت بطريقة ذكية على مدار فصول الكتاب لتجعله أكثر تشويقا، من أكثر المواضيع المطروحة المضاف إليها طابع جديد هو علاقة الأب "أتيكوس" بأبنائه "جيم" و "سكاوت" فإنها تمثل العلاقة الصائبة من وجهة نظري، فهو يدلل طفلته " سكاوت" في بعض الأحيان كأي أب آخر و لكن في أحيان أخرى يعاملها كشخص بالغ يمكن أن تدلي بآرائها في نقاشات مختلفة، مسئولة عن عواقب تصرفاتها وهو ليس أبًا مسيطرًا فلا يطلق أمرًا دون مناقشته أو على الأقل يقول السبب وراء أمره وفي بعض الأوقات يتفاوض ويتنازل.

لقد ألقي الكتاب أيضًا ضوءًا على الحالة الاقتصادية في ذلك الحين (عام ١٩٦٠) من خلال شخصية تتناولها القصة "كاننجهام" حيث كان الأب مزارعا في حقل قمح والابن رث الملابس لا يملك المال الكافي لشراء وجبة الغداء، كان الأب كثيرًا ما يرد دين " أتيكوس" عليه بجزء من محصوله ويظهر في ذلك سوء الحالة الاقتصادية وتنوع الطبقات، تعد عائلة أتيكوس من الطبقة المتوسطة وكان ذلك لصالح الكتاب لأنه إذا كان "أتيكوس" من الطبقة العالية فلن يستطيع الكتاب أن يصل إلى هذا المستوى من الشفافية عن الطبقة الفقيرة أو بالأحرى الطبقة التي لم تملك أى سلطة أو أى حق في البلدة (مثل طبقة الملونين) و كذلك الحال إذا كان من الطبقة الفقيرة كان سيصعب عليه الوصول إلى الطبقات الأخرى دون الحاجة إلى ذكر أنه لم يكن من الممكن أن تظهر شخصيته بتلك القدرة على إحداث تغير.

أكثر ما أمتعنى خلال قراءتى للكتاب تنوع الأحداث والمشاعر الإنسانية فمثلا الجزء الذي كان فيه "جيم" و"ديل" و "سكاوت " يتربصان بمنزل عائلة "رادلى" سيطر علىّ الإحساس بالترقب والرعب فلن أنسي أبدًا عندما عاد

"جيم" في الثانية صباحًا لفناء منزل عائلة "رادلى " ليأخد سرواله الذي كان قد تركه نظرًا لاشتباكه في الأسلاك المحيطة بسور المنزل أثناء محاولة هروبه، أيضًا عندما اكتشف "جيم" و"سكاوت" فجوة بشجرة البلوط الواقعة بالقرب من منزل عائلة "رادلى" و التي تظهر لهم بها تماثيل من الصابون التي تشبهم تماما!!

ولقد اختبرت شعور الغضب وأحسست بثورة "سكاوت" عندما كان يوجه لها كلام يسيء إلى والدها بسبب دفاعه عن "توم روبنسون" وهو شاب ملون متهم في قضية اغتصاب، فكان "أتيكوس" والد سكاوت مثلها الأعلى في الحياة ولم تقدر على تحمل فكرة أن البعض يسبه بالكلام وهي واقفة عاجزة عن فعل شيء . وأيضا عندما استفزت السيدة " ديبوز" "جيم" الذي لم يستطع تمالك نفسه .

شعرت بالحزن والظلم وقلة الحيلة طوال محاكمة " توم روبنسون" فبالرغم من أن معظم الأدلة كانت في صالحه ولكن كأن غيما من العادات السخيفة والعنصرية التي لا تحدث لا عقلاً و لا منطق و إنما العقول المستسلمة الفارغة أحاطت بأهل البلدة وهيئة المحلفين وصدر الحكم ضد "توم" وانتهى به المطاف جثة هامدة أثناء محاولته الهروب من السجن. وحينما علمت السيدة " روبنسون " بخبر وفاة زوجها وأمامها أطفالها الصغار الذين يتموا ورؤيتها للحياة الشاقة التي تنتظرها و لا مفر من أن تتأقلم معها شعرت بالظلم والأسى.

كل تلك المشاعر الإنسانية التي أوجدها الكاتب هي من وجهة نظري أهم ما يميز الكتاب فهو ليس من المعتاد أن يلم كتاب واحد بكل هذه الأحداث المؤثرة .

رسم العلاقة الوطيدة بين أهالى البلدة من الواضح أنها لم تكن بمهمة سهلة للكاتب ففكرة أن يعطى الكاتب نبذة عن كل عائلة تسكن في الحي في بداية القصة فقط ليس بشيء مقبول أو مريح للقارئ فأنه من المستحب أن يكون حضور كل الشخصيات واضحا على مدار القصة و لذلك ميزتين:

أولا : ينشط ذلك ذاكرة القارئ فإدخال جميع الشخصيات بصفة مستمرة لا تعطى فرصة للقارئ أن ينسى إحدى الشخصيات.

ثانيا: إظهار تأثير الشخصيات المحيطة على الشخصيات الأساسية مثل شخصية "ديل" صديق جيم وسكاوت الذي كان يأتيهم كل عطلة صيفية وكان تأثيره واضحًا على جيم عندما كان يدفعه دائما للمغامرة مثل إرسال رسالة إلى بو رادلى عبر نافذته المفتوحة و غير ذلك الكثير من المغامرات.

تمكن الكاتب بوصفه الدقيق من إعطاء صورة كاملة عن الشخصيات شكلاً و مضمونا فكان من السهل بالنسبة لي تخيل الكثير من المواقف، مثلا "اليكساندرا" أخت " أتيكوس" فإنى أتخيلها سيدة صارمة في فستان ضيق شعرها مصفف للأعلى وملامحها حادة دالة على شخصيتها القوية، هناك أيضا شخصية السيدة " ديبوز" التي تتراءى لي في صورة سيدة قصيرة وسمينة بعض الشيء وشعرها الرمادي الذي غالبًا ما يكون مربوطا للخلف أما عيناها الضيقتان فهما دالتان على مدى ذكائها وخبثها في بعض الأحيان. كل تلك الصفات لم أجدها مكتوبة بل مرسومة بين السطور قد يجدها القارئ خفية في موقف أو قول ما وهذا يضفى بعض الغموض ليتيح الفرصة للقارئ أن يتأمل ويستكشف.

ما لم ألاحظه في أى كتاب من قبل وفوجئت به في كتاب " أن تقتل طائرا بريئا " أن القصة تُروى على لسان فتاة صغيرة لم يتعدَّ عمرها تسع سنوات، لم يكن من المتوقع أن نظرة الأطفال للأحداث المحيطة بهم من الممكن أن تكون بتلك التأثير، فنجد " سكاوت" متأملة متسائلة كيف ولماذا، فهي متنبهة لكل ما يحدث من حولها تلاحظ أدق التفاصيل وتسعى لحل الألغاز وهذا ما قد يجهله البعض عن الأطفال، لقد أزال الكتاب الغطاء من على منظور جديد وهو منظور واقعي ولكن طريف في نفس الوقت ولعل ذلك شيئا يحتسب للكاتب.

من الأفكار التي طرحها الكتاب تأثير الشخصيات النسائية المحيطة بـ"سكاوت" خاصة مع غياب الأم مثل "كالبورنيا" وجارتهم الآنسة "مودى" وهما شخصيتان قويتان مستقلتان وهناك أيضا شخصية "ماييلا يوويل" الفتاة التي أقدمت على تدمير حياة إنسان بريء محاولة أن تخبئ رغبتها فيه وكان لذلك بالطبع تأثير قوي على بناء شخصية سكاوت، وهناك السيدة "ديبوز" والتي كانت غالبًا ساخطة على "سكاوت" لارتدائها سروالاً لاعتقادها أنه يجلب السمعة السيئة لعائلتها بجانب أنها بصفة مستمرة تسيء إلى " أتيكوس" لمدافعته عن " توم روبنسون ".

كان اختيار عنوان كتاب "أن تقتل طائرا بريئا " اختيارًا موفقًا لأنه باختصار يشمل مضمون القصة ولقد لفت انتباهي التشبيه فإن قتل ما هو بريء وغير ضار مثل "توم روبنسون" بمثابة قتل طائر بريء، وذلك يذكرني بأحد مشاهد القصة عندما أتى "أتيكوس " بلعبة البندقية لـ " جيم" و"سكاوت " كهدية في الكريسماس وطلب من عمهم "جاك" أن يعلمهم الرماية ولكن حذرهم من أن يصيبوا طائر الموكينج ولاحقا شرحت لهم الآنسة "مودي" أن هذا الطائر مسالم لا يؤذى أى مخلوق آخر فكل ما يفعله هو الغناء وأن قتله خطيئة.

نقدي الوحيد للكتاب شعوري أنه مقسم لجزءين وعدم قدرة الكاتب على ربطهما معا بشكل جيد: الجزء الأول يتضمن حب استطلاع "جيم و سكاوت" تجاه جارهم الغريب "بو رادلى" واستكشاف السبب وراء عدم خروجه من المنزل وبكل تلك الأحداث الغامضة والمثيرة وأيضا يروى الكاتب تاريخ عائلة "فينش" وتاريخ "مايكوم"، أما الجزء الثاني فهو يتناول شكل العلاقة بين أهل البلدة والملونين واستحقارهم لهم من خلال قضية " ماييلا يوويل "

آخر ما أحب أن اعلق عليه من خلال قراءتى للكتاب هو براعة الكاتب في إبراز جميع جوانب كل شخصية من شخصيات القصة :

شخصية "أتيكوس" : في أول القصة أظهر جانب الأب منه الذي يتحاور مع أولاده ويناقشهم وفي نفس الوقت يغمرهم بعطفه ويحاول جاهدًا إن يعوضهم عن والدتهم وأيضًا هو المحامي المناضل الذي وقف أمام تقاليد ومفاهيم كل أهالي البلدة يدافع عن"توم روبنسون" و يظهر لنا دهائه في كونه ملتقطًا ومنتقيًا أدق التفاصيل لتصبح دليلاً في صفه، وهو الشجاع حامل البندقية عندما يتطلب الأمر (عندما هجم الكلب المسعور أتى ببندقيته وقتله)، ونراه وهو خائف ومرعوب عندما تتبعه جيم وسكاوت وشعر بالخطر عليهم من قبل الرجال الذين كانوا يهددونه، أيضا هو أب حازم عندما يحتاج أحد أبنائه لذلك.

شخصية السيد "رايموند ": و هو من أكثر الأشخاص إثارة بالنسبة لي فهو أكبر دليل على عدم تقبل الناس للأوضاع غير الاعتيادية ومحاولتهم الدائمة للعثور على أى سبب و إن لم يكن حقيقيًا فقط ليحللوا الأمور ويبسطوها لأنفسهم لأنه ببساطة نحن البشر لا نسمح بتقبل ما هو غير طبيعي أو غير اعتيادي ونحاول جاهدين أن نجد ما هو منطقي لكي لا نرتعب من الواقع أو نخشاه. في حالة السيد "رايموند" فهو إنسان غير سوى بالنسبة للناس فواقع أنه أنجب أولادًا مخلطين فهو في نظر الناس الرجل الآثم، فقرر أن يعطى للناس سببًا ليساعدهم على تقبل الأمر فمن الأسهل لهم إن يقتنعوا بفكرة أنه إنسان سكير على أنه إنسان واعي لما يفعله في حياته.

يقول رايموند في أحد المواقف لـ "سكاوت" و"ديل" (أحاول أن أمنحهم سببًا يساعد الناس على إيجاد سبب إذا لم يستطيعوا إيجاده. حين أنزل إلى البلدة فإنى أتمايل قليلا وأشرب من هذا الكيس فيقول الناس دولفوس رايموند واقع تحت سيطرة الخمر ولذا لن يغير من أساليبه إنه لا يستطيع مغالبة نفسه ولذا يعيش حياته بهذه الطريقة.)

السيد "بو رادلى": هو الشخصية الغامضة على مدار القصة لا نعرف عنه شيء سوى بعض الحكايات التي تُروى على لسان أهالي البلدة وأنا بصفتي قارئة لم أتخيله إلا مختلاً عقليا غير قادر على موازنة الأمور، ولكن ظهوره المنتظر في آخر القصة قلب الموازين: مساعدته للطفلين والدفاع عنهما وبعد ذلك انعزاله وانطواؤه فلقد رق قلبي له و أحسست بالطفل الصغير بداخله وإنى أرى في ذلك عبقرية الكاتب في أن يحول شخصية "بو" من شخص مخيف إلى طفل بريء وظهر ذلك كثيرًا في أحد المشاهد الأخيرة للقصة عندما أمسك "بو" بيد "سكاوت " وطلب منها أن تقوده إلى البيت فتأثرت وشعرت بنقص الحنان لديه وحاجته لشخص يحبه ويراعاه لا يهابه.

إن كتاب "أن تقتل طائرًا بريئا" جمع كل العناصر التي يريدها أى قارئ ليشمل الجانب السياسي والدرامي والاجتماعي، ورغم نقدي السابق بإحساسي بأن الكتاب مقسم لجزءين إلا أن ذلك لا ينفى إعجابى بالقصة ومدى تأثري بكل شخصية مررت بها، واستفادتي من الأحداث فنعم لم تحكم هيئة المحكمة لصالح "توم روبنسون" ولكن بالتأكيد كان له تأثيره على المدى البعيد على حياة أناس آخرين، أصبحت الأمور أكثر وضوحًا بالنسبة لي الآن وهو إذا أردت شيئا بشدة يجب أن أبذل كل ما في إمكاني للحصول على ما أؤمن به. ليس من العيب خسارة قضية و لكن عدم المحاولة و لكل شيء المرة الأولى.